وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة واسط
كلية القانون

محاضرات في مادة القانون الدولي الإنساني

قدمتها
م.م نبأ ساهي جيجان

2026

1448

المحاضرة الأولى
لمحة تاريخية عن القواعد الانسانية وتراث بعض الحضارات القديمة

لا يمكن انكار حقيقة تاريخية تؤكد وجود قواعد انسانية، تختلف طبعا عن القواعد المعمول بها في عصرنا الراهن، لكنها لا تقل أهمية في جوهرها عن أحدث ما توصلت إليه الأعراف والقوانين المعاصرة. وإذا كانت معاملة الأعداء في القديم تتسم بالقسوة والشدة فلا يعني ذلك أن الرحمة والشفقة هما وليدتا العصور الحديثة ومفهومان جديدان في تاريخ البشرية بل أن ثمة قواعد ومفاهيم قديمة ذات أبعاد انسانية راقية على بساطتها وضيقها. وبما أن جميع الحضارات ومختلف الشعوب والأمم عرفت الحرب ومارستها فإنها تعاملت مع أقدم ظاهرة وأخطرها في حياة المجتمعات البشرية - وهي من صنع الإنسان - وفق حقائق الظرف وتطور العلاقات العدائية، وسواء نشبت الحرب بين قبائل أو امبراطوريات أو أديان وعقائد فإنها تفرض على المحاربين وأطراف النزاع سلوكا يختلف عما تكون عليه الحال زمن السلم، وإذا تحدثنا عن «سلوك» فإنه يعني وجود قواعد وتقاليد خاصة بحالة الحرب، مهما كان حكمنا عليها بمقاييسنا الحالية.

ففي أفريقيا القديمة، مثلا كان للمقاتل ميثاق شرف يحدد سلوكه أثناء الحرب ويحرم الاعتداء على الغير ونقض العهد والغدر. ولعبت الحروب دورا كبيرا في حضارات بابل واشور ومصر الفرعونية والشرق الأقصى القديم، وكان للجندي فيها موقع مميز ورغم ما عرفت به مصر الفرعونية من تقدم ورقي، فإن والشعوب القديمة. معاملة أسرى الحرب فيها كانت قاسية كما هو الشأن عند سائر الأمم

وماذا عن اليونان والرومان ؟

إذا كانت الحضارة الهيلينية راقية من حيث الفكر والنظم والمؤسسات المدنية، وإذا كانت حياة الانسان مكانته في هذا الكون مدار جدل الفلاسفة فإن الحرب شغلت أفكار الكثير من أولئك الفلاسفة، وبالاضافة إلى ما كتبوه حولها سجل تراثهم ملاحم زاخرة كما تشهد على ذلك الباذة هو ميروس. واعتبر اليونانيون الأجانب برابرة لا تطبق عليهم الأحكام السارية بين اليونانيين وكان مصير الأعداء الذين يقعون فى قبضتهم الإسترقاق أو القتل، إلا أن المدرسة الرواقية غيرت تلك النظرية شيئا ما فلم تعد المعادلة القائلة باعتبار الأجانب برابرة"
ويذكر المؤرخون موقف الاسكندر الكبير الذى عفا عن أسيره ملك «بورس عام 326 ق.م وملكه كامل بلاد الهند التي فتحها ، وعامل أسرة ملك الفرس داريوس معاملة نبيلة لكن ذلك السلوك يبقى موقفا نادرا. أما الرومان فإنهم خاضوا الحروب العديدة قبل الامبراطورية وبعدها وكان سلوكهم يتميز بالقسوة والجبروت، وكان أسرى الحرب الذين يقعون في قبضتهم من أكبر مصادر الرق، يفعل بهم مالكهم ما يشاء.

العصر الوسيط:

لا يسع المجال في هذا العرض السريع للحديث عن سلوك جيوش امبراطوريات وممالك العالم أثناء حروب العصر الوسيط (الروم، الفرس، الهند، الصين، التتار، المغول، البرتغال، الأتراك...) ونكتفي بالاشارة إلى تأثير المسيحية في سلوك المتحاربين وظهور تقاليد الفروسية.

لقد دعا المسيح عليه السلام إلى المحبة والرحمة والتسامح بين أبناء البشر ولاقي أتباعه كثيرا من العذاب والاضطهاد في سبيل نشر دعوتهم. وبينما تطغى على العهد القديم لهجة القسوة والش والشدة في معاملة الأعداء، تتضح في العهد الجديد ملامح الرأفة والدعوة إلى اللين. وعندما أصبحت المسيحية قوية بعد أن اعتنقها الامبراطور قسطنطين وجعلها الدين الرسمي لروما عام 313 بدأ رجال الدين يبحثون عن التبرير الديني للحرب وكانت تلك بداية نظرية الحرب العادلة التي صاغها القديس أغسطينوس وطورها القديس توما الإكويني وغذت أفكار رواد القانون الدولي الأوروبي من اللاهوتيين مثل فيتوريا وسواريز ولاحقا غروتيوس.

ونعلم ما أثارته وخلفته الحروب الصليبية من فظاعة وبشاعة أثناء الحملات الثماني خلال قرنين بشهادة مؤرخي الصليبيين أنفسهم، والكتابات التي نقلت إلينا أخبار ذلك، عربية وغير عربية، تجمع على ما أحدثته الجيوش الصليبية من دمار وفساد وسفك الدماء لم يسلم منها حتى مسيحيو الشرق أنفسهم وظهرت منذ القرن الحادي عشر للميلاد مؤسسة عسكرية دينية أطلق عليها اسم "الفروسية " وهي لصيقة الجذور بالحروب الصليبية لأن «الفرسان» شكلوا تنظيما لقتال المسلمين، وحددوا لأنفسهم قواعد صارمة، إلا أنهم كانوا طبقة ضيقة من النبلاء وظلت تقاليد الفروسية مقتصرة عليهم دون غيرهم ولا تطبق إلا في عالم المسيحية، لكن أثرها كان واضحا في الخطوات الأولى لقانون الأمم الأوروبي، وقانون الحرب تحديدا